



بيت لحم ٢٢ آذار ٢٠٠٠ العظة في أثناء القداس في ساحة المهد

"ولد لنا ولد، ودعي اسمه عجيبا مشيرا، لها جبارا رئيس السلام" (أشعيا ٩ : ٦).

صاحب الغبطة، الإخوة الأساقفة والكهنة
أيها الإخوة والأخوات الأعزاء

١ تشير كلمات النبي أشعيا إلى المخلص الآتي إلى العالم. وقد تم الوعد الكبير بالمخلص هنا في بيت لحم. منذ ألفي سنة، ظل المسيحيون يتلفظون باسم بيت لحم، جيلا بعد جيل، بتأثر بالغ وبشكر وابتهاج. ولقد جئنا نحن اليوم، مثل الرعاة والمجوس، نبحت عن الطفل "المقْمَطِ والمُضَجَّعِ في مذود" (لوقا ٢ : ١٢). ومثل العديد من الحجاج من قبلنا، نجتو نحن أيضا ساجدين مندهشين أمام السر الجليل الذي تم هنا.

في أول عيد ميلاد لي، في خدمتي كخليفة للقديس بطرس، أعربت عن رغبتي الشديدة في الاحتفال ببداية حبريتي في مغارة المهد في بيت لحم (عظة قداس نصف الليل ٢٤ كانون الأول ١٩٧٨، ٣). لم يكن ذلك ممكنا حينذاك، وظل غير ممكن حتى اليوم. واليوم، كيف لا أسبح الله أبا المراحم؟ فإن طرقة عجيبة لا تُدرَك، ولا حد لمحبتة، لأنه منحني أن آتي، في سنة اليوبيل الكبير، إلى مكان ميلاد المخلص. بيت لحم هي قلبُ زيارتي في سنة اليوبيل هذه. إن الطرق التي سلكتها قادتني إلى هذا المكان وإلى السر الذي ينادي به.

أشكر غبطة البطريرك ميشيل صباح لكلماته الترحيبية، وأحيي من صميم قلبي كل أعضاء مجلس رؤساء الكنائس الكاثوليكية في الأرض المقدسة. وإن تواجد عدد من الجماعات الكاثوليكية الشرقية في المكان الذي شهد ولادة ابن الله بحسب الجسد، هو أمر هام، إذ تدل بغنى تنوعها على جامعية الكنيسة. أحيي بكل محبة ممثلي الكنائس الأرثوذكسية والجماعات الكنسية الحاضرة في الأرض المقدسة.

أعبر عن شكري لممثلي السلطة الفلسطينية الذين يشاركوننا هذا الاحتفال، ويصلون معنا من أجل خير الشعب

الفلسطيني.

٢ "لا تخافوا، ها إني أبشركم بفرح عظيم يكون فرح الشعب كله. ولد لكم اليوم مخلص في مدينة داود، وهو المسيح الرب" (لوقا ٢: ١٠-١١).

إن الفرح الذي بشر به الملاك ليس أمرا من الماضي. بل هو فرح اليوم - يوم خلاص الله، وهو يوم الأبدية الذي يشمل كل الأزمان، الماضي والحاضر والمستقبل. نحن مدعوون في فجر الألف الجديد إلى أن نرى، وبوضوح، أن الزمان الحاضر له معنى، لأن الأبدية، هنا، دخلت التاريخ، والأبدية باقية فينا دائما. قد توضح كلمات الطوباوي "بيدا" هذه الفكرة حين يقول: "اليوم أيضا، وفي كل يوم وحتى نهاية الدهور، يُحمَلُ بالربِّ في الناصرة، ويُولَدُ في بيت لحم" (في تفسير إنجيل القديس لوقا، ٢: الأباء اللاتين، ٩٢، ٣٣٠). كلُّ يوم في بيت لحم هو عيد ميلاد، ولذلك كلُّ يوم هو عيد ميلاد في قلوب المسيحيين. وكل يوم نحن مدعوون لننادي برسالة بيت لحم في العالم، وهي "بشرى الفرح العظيم": أن كلمة الله الأزلي، إله من إله، نور من نور، صار بشرا وسكن بيننا (راجع يوحنا ١: ١٤).

الطفل الوليد بحاجة إلى عناية مريم ويوسف، إنه موكول إلى محبتهم: وهو في الوقت نفسه غني العالم كله. هو كلُّ شيء لنا.

في هذا الطفل، في هذا الابن الذي أعطي لنا، نجد راحة لنفوسنا. هو الخبز الحقيقي الذي لا يخذل أبدا. هو خبز الإفخارستيا أي خبز القرايين. واسم هذه المدينة يرمز إليه: "بيت لحم" هي "بيت الخبز". تنازل الله فاختفى في صورة الطفل. وتنازل فأخفى لاهوته في خبز الحياة. "أسجد لك أيها اللاهوت المختفي. إنك حقا حاضر تحت هذه الأعراض". (Adoro te devote latens deitas. Quae sub his figuris vere latitas).

٣ "إن الله أحلى ذاته متخذًا صورة العبد"، وفي الضعف أتمَّ عمل فداءنا: هذه حقيقة ليس من السهل قبولها. ولد المخلص في الليل، في الظلام، في الصمت وفي فقر المغارة في بيت لحم. قال أشعيا النبي: "الشعب السائر في الظلمة أبصر نورا عظيما، والمقيمون في بقعة الظلام أشرق عليهم نور" (٩: ٢). هذا مكان عرف نير الظلم وجبروته. كم مرة سَمِعَ صراخُ الأبرياء في هذه الشوارع؟ والكنيسة الكبيرة المبنية على مكان ميلاد المخلص تقف مثل قلعة تلاطمتها صراعات الأجيال. مذود يسوع يُرى دائما في ظل الصليب. الصمت والفقر حول الميلاد في بيت لحم هما مثل الظلام والألم المحيطين بالموت على الجلجلة. المذود والصليب هما سر واحد، سر الحب الذي يفدي ويخلص. والجسد الذي وضعته مريم في المذود هو الجسد نفسه الذي قُرَّبَ على الصليب.

٤ أين إذاً سلطان "المشير العجيب، الإله الجبار رئيس السلام" الذي يتكلم عليه أشعيا النبي؟ وما هو السلطان الذي يتكلم عليه يسوع عندما يقول: "إني أوليت كل سلطان في السماء والأرض" (متى ٢٨: ١٨)؟ إن مملكة يسوع ليست من هذا العالم" (يوحنا ١٨: ٣٦). إن مملكته ليست استعراض قوى وغنى وفتوحات تحدّد معالم التاريخ البشري. بل هو السلطان الذي يهزم الشرير، هو النصر الأخير على الخطيئة والموت. هو السلطان لشفاء الجراحات التي تشوه صورة الخالق في خلائقه. سلطان المسيح هو السلطان الذي يحوّل طبيعتنا الضعيفة ويجعلنا قادرين، بنعمة الروح القدس، أن نكون في سلام كل واحد مع الآخر، وأن نكون في شركة مع الله نفسه. "أما الذين قبلوه، وهم الذين يؤمنون باسمه، فقد

مكثهم أن يصيروا أبناء الله" (يوحنا ١ : ١٢). هذه هي رسالة بيت لحم اليوم وإلى الأبد. هذه هي الهبة الخارقة التي حملها إلينا رئيس السلام قبل ألفي سنة.

٥ بهذا السلام أحيي الشعب الفلسطيني، وأنا مدرك أن هذه فترة حاسمة في تاريخكم. اختتمتم قبل قليل السينودس الرعوي الذي شاركت فيه كل الكنائس الكاثوليكية: أسأل الله أن يزيدكم به شجاعة، وأن يقوي بينكم روابط الوحدة والسلام. كذلك تشهدون لإيمانكم، فتبنون الكنيسة وتخدمون الصالح العام. أقدم القبلة المقدسة للمسيحيين في سائر الكنائس والجماعات المسيحية. أحيي المسلمين في بيت لحم، وأصلي من أجل عهد جديد من التفاهم والتعاون بين جميع شعوب الأرض المقدسة.

إننا نلتفت اليوم إلى الوراثة، ونحذق في لحظة محددة في التاريخ كانت قبل ألفي سنة، ولكننا نعاني الزمن كله بالروح. نجتمع في مكان واحد، ولكننا نعاني الأرض كلها. نحتفل بطفل وليد، ونعاني جميع الناس في كل مكان. اليوم من ساحة المهدي نحتف لكل مكان وزمان ولكل إنسان: "السلام معك، لا تخف". إنها كلمات تتردد في جميع صفحات الكتاب المقدس. إنها كلمات إلهية قالها يسوع المسيح نفسه بعد أن قام من بين الأموات: "لا تخافوا" (متى ٢٨ : ١٠). وهي كلمات الكنيسة لكم اليوم. لا تخافوا أن تحافظوا على وجودكم وتراثكم المسيحي في المكان نفسه الذي ولد فيه المخلص.

في مغارة بيت لحم "ظهرت نعمة الله" (طيطس ٢ : ١١)، كما قال القديس بولس في القراءة الثانية لهذا اليوم. في الطفل الذي ولد، وهب الله العالم "الرحمة التي وعد بها آباءنا، إبراهيم ونسله إلى الأبد" (راجع لوقا ١ : ٥٤-٥٥). لنخشع أمام سر الكلمة الأزلي الذي صار بشرا، ولنترك كل خوف، ومثل الملائكة لنمجد الله الذي يعطي العالم هذه النعم، ومع الجوقات السماوية لنرغم نحن أيضا ترنيمة جديدة (مزمو ٩٦ : ١):

"المجد لله في العلي والسلام في الأرض للناس" الذين أحبهم (لوقا ٢ : ١٤).

يا طفل بيت لحم، يا ابن مريم وابن الله، يا سيد الأزمان ورئيس السلام، "أنت أنت أمس واليوم وإلى الأبد" (عبرانيون ١٣ : ٨): إذ ندخل في الألفية الجديدة، اشف جراحنا، ثبت خطواتنا، افتح قلوبنا وأذهاننا "الرحمة حنان إلهنا، التي بها افتقدنا الشارق من العلي" (راجع لوقا ١ : ٧٨). آمين.